الصَّبْر علىٰ محنة الموت

الموتُ يُعَدُّ من أشدِّ المحن التي تصيب الناس ومن أقسىٰ الغَمَرات التي يخوضها الإنسان في واقع الحياة . ولقد سمّاه الله تعالىٰ مصيبةً فقال :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [المائدة : ١٠٦] .

والموت حقٌّ كتبه الله تعالىٰ علىٰ جميع الخلق فقال : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥ ، والأنبياء : ٣٥، والعنكبوت : ٥٧] .

وبيَّن الله تعالىٰ أنَّ في الحياة والموت ابتلاءً للإنسان ، فمن اغتنم حياته بالطاعة وأحسن العمل فاز بالجنّة ، ومن لم يغتنم حياته بما يرضي الله ولم يُحسِن العمل ، كان من الخاسرين . فقال في ذلك جلَّ ذكره : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الملك : ٢] .

وبيَّن سبحانه أنَّ لكلِّ مخلوق أجلاً ، فإذا ما انتهىٰ ، فلن يستطيع أحد من الخَلْق أن يزيد في عمره لحظة أو يؤخِّر الموت عنه لحظة ، فقال جلَّ في علاه : ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف : ٣٤] .

والموت يُدركُ مَنْ كُتِب عليه أينما كان وحيثما حلَّ ، فلقد قال تعالىٰ : ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء : ٧٨] .

وإذا حان الأجل فلن تفيد الأموال ولا الأنصار ولا الحصون ولا الدروع ولا الحُرّاس في دفعه عمّن انتهى أجله .

إذ قال سبحانه : ﴿قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [آل عمران : ١٦٨] .

وقال : ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة : ٨] .

ورحم الله الشاعر[1] حيث قال :

لا تأمن الموتَ في طَرْفٍ ولا نفسِ ... ولو تسنَّرت بالأبوابِ والحرسِ

واعلم بأنَّ سهام الموتِ قاصدةٌ ... لكلِّ مدَّرعٍ منّا ومتَّرسِ

---

(١) الشاعر أبو العتاهية .

فالعاقل من الخَلْق من اغتنم حياته بما ينفعه في آخرته ، فعمل لما بعد الموت . والعاجز مَنْ أهمل العمل ليوم الحساب ، وقَصَر همَّه على الدنيا وشهوات الحياة . قال الله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [الحشر : ١٨ـ١٩] .

وقال رسول الله ﷺ : « الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أَتْبع نفسه هواها وتمنّىٰ علىٰ اللهِ الأماني »[1] .

وجاء في حديث آخر قال ﷺ : « اغتنم خمساً قبل خمس : حياتَك قبل موتك ، وصحَّتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شُغلك ، وشبابك قبل هرمك ، وغناءَك قبل فقرِك »[2] .

فيجب على العبد أن يحاسب نفسه ويتدارك تقصيره قبل

---

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه عن شدّاد بن أوس .

(٢) رواه البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما وأحمد في الزهد . قال المناوي : إسناده حسن .

فوات الأوان ، فإن الله تعالىٰ يقبل توبة العبد ما لم يغرغر ، وأمَّا إذا نزل فيه الموت ، وبلغت روحه الحلقوم ، فلن ينفعه حينئذٍ الندم ، ولن يفيده تمنٍّ ولا رجاء، وهذا ما صرَّح به القرآن الكريم تذكرةً للعباد إذ قال الله سبحانه :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩٩ـ١٠٠] .

ورضي الله تعالىٰ عن سيدنا عمر بن الخطاب عندما قال في هذا المقام : (حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم فاليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل)[1] .

وعلىٰ المؤمن إذا نزلت به مصيبة الموت أن يتجمَّل بالصبر والرضا والتسليم لله سبحانه ، وفي ذلك برهانٌ علىٰ إيمانه بالله ، وسبيلٌ للفوز بنعيم الجنان ورضا الرَّحمن والنجاة من النيران ، وحسبنا دليلاً على ذلك قوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ

---

(١) مختصر منهاج القاصدين : ٣٧٢ .

رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة : ١٥٥ـ١٥٦] . وقوله ﷺ : « يقول الله عزَّ وجلَّ : ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفيَّه من أهل الدنيا ثُمَّ احتسبه إلاّ الجنَّة »[1] .

ولقد مُنِي بمصيبة الموت بسطاءُ الناس وأشرافُهم ، فأُصيب بها حتى الأنبياء والمرسلون والأولياء والصالحون ، ولكنَّهم كانوا رغم شدَّة وقعها من الصابرين لا يعرف الجزع سبيلاً إلىٰ نفوسهم ، وإنّما كان لسان حالهم ومقالهم أمام محنة الموت : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] . وحسبك منهم أشرف الخلق وسيِّد الكائنات رسولنا الكريم محمد ﷺ ، فإنَّه لم تنزل مصيبة الموت بأحد مثل ما نزلت به صلوات الله وسلامه عليه ، فلقد مات أبوه وهو جنين في بطن أمه ، ثم ماتت أُمُّه بعد ذلك وهو ابن ستِّ سنين ـ أي في السنِّ التي يكون فيها الطفل في أمسِّ الحاجة إلى حنان الأم وعطفها ورعايته ـ ثُمَّ مات جدُّه عبد المطلب الذي كفل طفولته وأغدق عليه من عطفه وحَدَبه ورحمته وهو ابن ثماني سنوات ، وانظر كم يكون أسى الصبيّ علىٰ فراق جدِّه في تلك السنّ حيث

---

(١) رواه البخاري وأحمد عن أبي هريرة .

لا أب له يرعاه سواه ، ثُمَّ مات عمُّه أبو طالب الذي كفله بعد جده والذي كان يدفع عنه خطر المشركين ، ويبدِّد عنه تآمرهم إذ كانوا يهابونه ويعملون له حساباً إلى أن مات ، وماتت زوجته في العام نفسه الذي مات فيه عمه ، وما أكثر ما حدَّثتنا السيرة المطهَّرة عن مناصرة السيدة خديجة الكبرى رضي الله عنها لزوجها سيدنا رسول الله ﷺ وتثبيتها له علىٰ دعوته ووقوفها إلىٰ جانبه ، فكان في فراقها وقع شديد الألم علىٰ رسول الله ﷺ شأن موت عمِّه أبي طالب حتىٰ سُمِّي العام الذي ماتا فيه عامَ الحُزْن .

ومات في حياته ﷺ أولادُه ذكوراً وإناثاً إلاّ ابنته السيدة فاطمة رضي الله عنها التي لحقت به بعد موته بستة أشهر ، ومات في حياته من أولاد أولاده كما جاء في خبر ابنته زينب رضي الله عنها عندما مات ولدها ، فأرسلت إليه تُعلِمه بنبأ وفاته ، ومات عمُّه حمزة شهيداً في أُحُد ، فلمَّا دخل المدينة ومرَّ بدارٍ من دور الأنصار من بني عبد الأشهل وظفر ، فسمع البكاء والنواح علىٰ قتلاهم ذرفت عيناه ، فبكىٰ ، ثم قال : « لكن حمزة لا بواكيَ له » ، فما كان من نساء بني عبد الأشهل إلاّ أن تحزَّمن وأتين يبكين علىٰ حمزة عمِّ

رسول الله ﷺ ، ولمَّا سمع الرسول الكريم ﷺ بكاءهنَّ خرج عليهنّ وهنَّ علىٰ باب مسجده يبكين ، فقال : « ارجعن يرحمكنَّ الله فقد آسيتُن بأنفسكُن »[1] .

ومات من أصحابه من مات في حياته وبين يديه ، فكان يودِّعهم بدعائه وتبشيره إيّاهم بالجنَّة ، فنذكر منهم مصعبَ بن عمير ، وزياد بن السَّكَن الذي مات يوم أُحد بين يدي رسول الله ﷺ وخدُّه علىٰ قدمه الشَّريف ، وأنسَ بن النَّضْر ، وسعدَ بن الربيع ، وعَمْرو بن الجموح ، وغيرهم ممن استُشهد في غزوة أُحد ، وجُلَيْبيباً الذي كان في موته خبر عجيب ، وزيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن رواحة الذين استُشهدوا في غزوة مؤتة ، وغيرهم من أهله وأصحابه وأقربائه . فكان ﷺ أمام مصيبة الموت التي تلاحق نزولُها عليه خلال حياته بفراق الأهل والأصحاب مثال الصَّبْر والاحتساب والرضا عن الله عزَّ وجلَّ . وكان سلوتَه في تلك المصائب قوله : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ . ولطالما كان يثبِّت أصحابه على الصَّبْر في محنة الموت ، ويحضّهم علىٰ الرّضا

---

(١) سيرة ابن هشام .

عن الله مهما بلغت فداحة المصاب ، فكان يقول : « ما من عبدٍ يُصاب بمصيبة فيفزع إلى ما أمر الله به من قول : ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ إلاّ آجره الله في مصيبته »[1] .

وسار الصحابة الكرام والمسلمون الأوائل ومن جاء بعدهم ممَّن لزم طريقتهم علىٰ هَدْي رسول الله ﷺ ووصيَّته بالصَّبْر والرِّضا عن الله ، وكتبوا أكرم صفحات الصَّبْر في محنة الموت وأصدقَ مواقف الرِّضا والتسليم لله مهما كان المُصاب أليماً . وإليك طَرَفاً من واقع هذا الصَّبْر الجميل :

* * *

(١) رواه ابن سعد عن أم سلمة رضي الله عنها . الكنز ٣/ ٦٦٤٩ .